قضية اللفظ والمعنى في التراث العربي

اللفظ في أصل اللغة :- مصدر بمعنى الرمي ، ويتناول ما لم يكن صوتا وحرفا ، وما هو حرف واحد وأكثر ، مهملا كان أو مستعملاً .
وفي لسان العرب: لفظت الشيء من فمي ألفظه لفظا رميته ، يقال أكلت الثمر ولفظت النواة أي رميتها.

أما المعنى لغة : فهو ما يقصد بشيء ، ولا يطلقون المعنى على شيء إلا أذا كان مقصودا .

فالمفهوم اللغوي للفظ أنه ما يتلفظ به الإنسان من كلام ، وللمعنى أنه المقصود باللفظ ، فالقصد شرط في اللفظ والمعنى ، إذ لو لم يعتبر القصد لا يسمى الملفوظ كلاما .

وقد أدرك العلماء على نحو جيد قوة الترابط بين اللفظ والمعنى ، وأدركـــوا قيمة المعنى في التعبير ، ومكانة الألفاظ حين تُنضم إلى بعضها ، فالمعنى لا يقوم بغير لفظ ، كما لا تقوم الروح بغير جسد ، فهما متلازمان تلازم الروح والجسد في الأشخاص .

يقول العتابي(ت 220هـ) : (الألفاظ أجساد والمعاني أرواح ، وإنما تراها بعيون القلوب ، فإذا قدمت منها مؤخرا ، أو أخرت منها مقدما أفسدت الصورة وغيرت المعنى كما لو حول رأس إلى موضع اليد أو يد إلى موضع رجل ولتحولت الخلقة وتغيرت الحلية) .

ولأهمية هذه الثنائية في الثقافة العربية الإسلامية ، فقد كانت محط عناية الباحثين والدارسين على اختلاف بيئاتهم ومعارفهم وعصورهم ، فتعددت حولها النظريات وتضاربت الآراء واختلفت المناهج والمصطلحات من حقل لأخر ، ونستطيع أن نقول إن التداخل والترابط اللذين تتسم بهما ثقافتنا العربية الإسلامية جعلا من هذه الثنائية إرثا مشتركا بين جميع البيئات المعرفية ، لأن الاهتمام بهما كان يستهدف أساسا خدمة النص القرآني ودراسته وتحليله فكان لكل بيئة نصيبها من بحث هذه القضية ومعالجتها بما يتناسب وطبيعة المادة الموصوفة .

ولهذا تعدُّ قضية اللفظ والمعنى واحدة من القضايا المهمة في تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، إذ شغل النقاد والبلاغيون العرب بها منذ عهد مبكر يرجع إلى النصف الثاني من القرن الثاني الهجري .

الجاحظ (ت 255هـ) وقضية اللفظ والمعنى :-

نجد الجاحظ يقف عند هذه القضية وقفة خاصة تلفت أنظارنا وتدعونا إلى التأمل فيها ابتغاء الاهتداء إلى المعنى الحقيقي الذي رمى إليه الجاحظ بمقولته الشهيرة (المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي والمدني ، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء وفي صحة الطبع وجودة السبك ، فإنما الشعر صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير) .

ومن هنا نجد ان صناعة الشعر بالكلمات وليس بالمعاني ، وبذلك ينتصر الجاحظ للفظ ويجعل له الشأن في الشعر.

وعلى الرغم من (أن عبارة الجاحظ مؤلفة بطريقة انفعالية بادية في قوله المعاني مطروحة في الطريق ، ومعناها غامض على الرغم من كثرة ترديدنا لها) . إلا ان من اليسير لديه ، أن تكتسب الحكمة من أفواه الفلاسفة والحكماء .

ولهذا نجد ان عبارة الجاحظ عبارة تحتمل التأويل وأن جميع من عاصره أو جاء من بعده قد أول هذا العبارة بالطريقة التي يراها مناسبة لهُ وجميع مصنفات النقد العربي في القرنين الرابع والخامس لا تعدو أن تكون حاشية متوسعة من عبارة الجاحظ .

كما يمكن القول إن إيصال المعنى في أحسن صورة أو بيان يعدُّ ترجمة لكلمة الجاحظ المشهورة وكأن الجاحظ يعني أن إفهام المعنى لا بد أن يكون إفهاماً مؤثراً ، أو بعبارة أخرى إن الشاعر يقوم بعمله المؤثر من خلال الارتباط بجوانب محسوسة ومظاهر البديهة أو ما نسميه الآن التجسيم .

أما جابر عصفور فيقول : (ان الجاحظ في عبارته كان يقدم لأول مرة في تاريخ النقد العربي بعض الأفكار الهامة التي سيطرت على أجيال طويلة من البلاغيين والنقاد من بعده) .

والملاحظ ان الجاحظ كان متميز الذوق والثقافة عن معاصريه إذ هجم على لغويي عصره واتهمهم بعدم قدرتهم على فهم الشعر وتذوقه ، و كان حريصا على الانفتاح على الثقافات الأخرى ، إذ كانت له قدرة كبيرة على التحليل والتعليل والتأمل ، فالشعر عند الجاحظ نشاط متميز ، قد لا يؤدي بنا إلى ضرب خاص من المعرفة مثل الفلسفة وقد تكون فائدته محصورة وليست عامة مثل العلوم.

ولهذا جاء هجوم الجاحظ المشهور على أبي عمرو الشيباني عندما أعجب ببيتين من الشعر وهما :-

لا تحسبن الموت موت البلى فإنما الموت سؤال الرجال
كلاهما موت ، ولكـن ذا أفظع من ذاك لذل السؤال

وهذان البيتان لا يدخلان في نظر الجاحظ عالم الشعر أو يوصف صاحبهما بالشاعرية إذ قال : (وأنا أزعم أنَّ صاحب هذين البيتين لا يقول شعراً أبداً ولولا أن أدخِلَ في الحكم بعض الفتك لزعمتَ أنّ ابنَه لا يقول شعراً أبداً) .

ويؤكد الدكتور جابر عصفور(ان الجاحظ يبني رفضه للبيتين على أساس أنه ليس المعول في الشعر على نظم الحكم والأفكار المجردة ، بل المعول فيه القدرة على صياغة هذه الأفكار صياغة جديدة مؤثرة ، تعتمد على التصوير) .

فإنما الشعر صناعة وضرب من النسيج وجنس من التصوير .

أما قدامة بن جعفر فقد قرر أن (معاني الشعر بمنزلة المادة الموضوعة والشعر فيها كالصورة ...) .

أما الآمدي فقد ذهب إلى أن صحة التأليف في الشعر هي أقوى دعائمه (فكل من كان أصح تأليفا كان أقوم بتلك الصناعة ممن اضطرب تأليفه) .

ولهذا نجد أبا هلال العسكري يقول إن المعنى هو الفكرة السابقة على الألفاظ من حيث وجودها واكتمالها في الذهن ، والبلاغة من بلوغ القصد والغاية ، إذ (هي كل ما تبلغ به المعنى ذهن سامعك فتمكنه في نفسه كتمكنه في نفسك مع صورة مقبولة و معرض حسن) . وقد قيل نتيجة لذلك إن المعاني تترتب في النفس أولاً ، ثم تترتب الألفاظ تبعاً لها في النطق .

قد نقول إن المعنى الذي لا تعبر عنه اللغة ليس معنى على الإطلاق ولا وجود له أصلاً لأننا لا نفكر على الأقل في فنون الأدب إلا باللغة .

وعلى هذا الأساس يمكن القول إن عملية التعبير تبدأ بعد أن تتكون لدى المتكلم فكرة ذهنية محددة يريد إخراجها من واقعها الذهني إلى واقعها المادي .

أما الدكتور شوقي ضيف فقد ذكر أن الجاحظ (أكثر من الحديث عن حسن الصياغة وكمال التركيب ودقة تأليف اللفظ وجمال نظمه وأداه شغفه بجودة اللفظ وحسنه وبهائه إلى أن قدمه على المعنى) .

وهو ما يتناغم مع ما ذهب إليه الدكتور مصطفى هدارة بقول إن الجاحظ قد بدأ أول كلامه في هذه القضية فآثر جانب اللفظ ، وأسقط المعاني في عبارته المشهورة فأبى ان يكون للمعاني مكانةٌ في الشعر .

لذا نجد الجاحظ قد بنى فكرته على أساس أن المعاني مبسوطة إلى غير غاية وممتدة إلى غير نهاية ، أما الألفاظ فهي معروفه محصورة ولذا وجب الفضل لمن كان بارعاً في المحصور الضيق وهو الألفاظ .

غير أننا نجد الدكتور إحسان عباس يقول (أن موقف الجاحظ من المعنى يتسم بالتناقض إذ أن الجاحظ باعترافه بأن (المعاني مطروحة ... وأن الشأن في تخير اللفظ وجودة السبك ... الخ قد انتصر إلى جانب الشكل وحط من شأن المعنى) .

غير ان الجاحظ يقول (هناك معانٍ لا يمكن ان تسرق كوصف عنترة للذباب فقوله – الجاحظ – اي المعنى لا يسرق دليل على أن السر في المعنى قبل اللفظ ولكن الجاحظ لم ينتبه لهذا التناقض) .

إن ما ذهب إليه الدكتور مصطفى ناصف بقول : (ولعل ذلك من عجائب الأمور ، إذا ما علمنا بأن الجاحظ رجل معتزلي والمعتزلة كما هو معروف عنهم يعنون بالمعاني العقلية المنطقية التي تعينهم على أداء مقالاتهم والبرهنة على حججهم ومن ثم إقناع خصوهم) .

نستطيع القول ان الجاحظ هنا قد فهم المعنى كما فهمه المعتزلة وهو المعنى العقلي المنطقي ، غير أنه لم يقتنع بأن هذا المعنى العقلي المنطقي يصنع شعرا ، فكأنه قال لا بد من أن يكون الشعر في العنصر الآخر وهو اللفظ ، واللفظ عند الجاحظ لا يعني أصوات الحروف فقط ، وإنما يعني المعنى الشعري الذي يقابل المعنى العقلي ، أي أن الجاحظ لم يفضل اللفظ بما هو أصوات بل بما هو معنى شعري ودل على المعنى الشعري باللفظ ، لأن المعنى صار يعني المعرفة العقلية المنطقية الواضحة فكان اللفظ أقرب مصطلح يدل به على جوهر الشعر إذ ان المعاني مطروحة في الطريق وإنما الشأن في كيفية صياغتها شعرا .